دار الآثار العربية بالقاهرة

تحفها الخشبية والعاجية والعظمية

١ — ﴿ الخشب ﴾ ان الأخشاب الصالحة للصناعة في مصر قليلة جداً ولا يصلح منها إلا المقطوع من شجر الجميز والنبق والزيتون والسنط والسرو ، أما شجر النبع الذي يزرع بكثرة في مصر فلا يصلح خشبه للصناعة وكذلك الخشب الذي يتخذ من شجر البرتقال والليمون لانهُ يكون عرضة للسوس . وقد كانَ في مصر على عهد الدولة الفاطمية والدولة الايوبية من بعدها غابات كبيرة كانت تستغل لاستخراج الخشب اللازم لصنع المراكب للأسطول . ولا تقتصر زراعة الأشجار على ما ذكر بل ان هناك من الأشجار الأخرى ما كان يزرع لتستعمل أخشابه في المباني والأساس بدليل ما نراه في العمارات القديمة من الساقات المدرونة الآن بالدساتير وهي قطع طويلة من الخشب توضع في الحيطان المبنية بالآجر لتقويتها ؛ وقد تبقى هذه الدساتير سنين طويلة دون أن تتلف بدليل الساقات التي نراها بكثرة في جامع أحمد بن طولون رغم مرور نحو (١١٠٠) عام على تأسيس المسجد

وقد استعملت الأخشاب في القباب بحيث أن أقدم القباب التي هي من عهد الدولة الفاطمية المبنية بالآجر أيضاً نرى جميع هياكلها (اسكفتها) من الخشب المتين . وقد استعمل الخشب أيضاً في السقوف كما نشاهد في ايوانات جامع ابن طولون الذي يعد من أنفس مباني القرون الاسلامية الأولى . أما استعمال الخشب في التسقيف فقد تفنن فيهِ العرب فجعلوا بعضها على شكل مربوعات مرئية تعلوها طبالي كالأخاديد — كما يرى في الجامع الطولوني — وجعلوا بعض هذه المربوعات مغطاة من أسفلها بألواح — مثل التلقيم الآن — وجعلوا السقف كله مغطى بمقرنصات وجعلوا اشكالاً أخرى جميعها تدل على علو كعبهم في هذا المضمار . وقد استعملوا الخشب أيضاً في غير التسقيف فاتخذوه كمصاريع للابواب والشبابيك وكراسي للمصاحف ومنابر للخطابة وغير ذلك مما لا يزال أعجوبة الفن ومعجزة الصناعة

وقد امتاز العرب في صناعتي التعشيق والخرط والأولى أقدم من الثانية وبهما تمكنوا من الحصول على السطوح الكبيرة الناشئة عن جمع القطع الصغيرة من الخشب

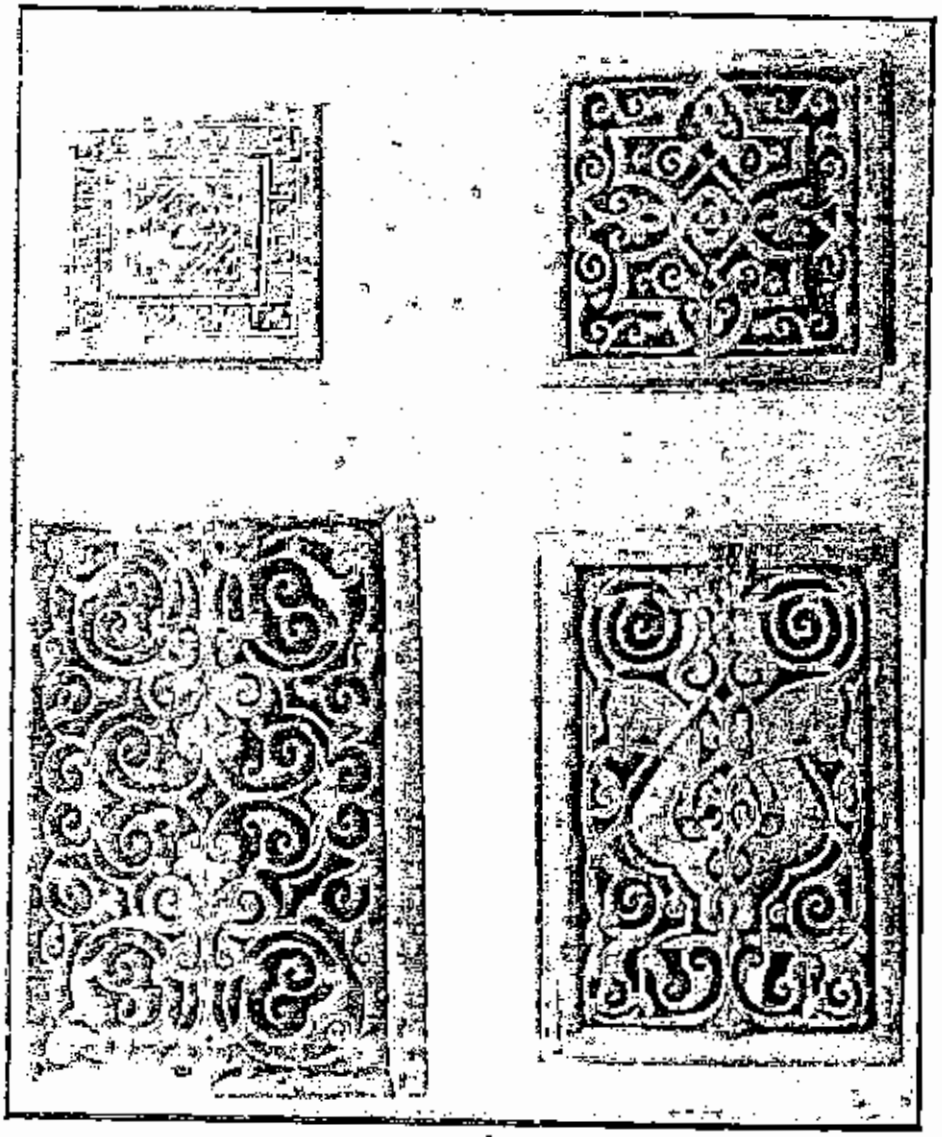

فوق الى يمين القارىء لوح خشبي من القرن العاشر . والى يساره لوح صنع من القرن الخامس عشر — تحت — كلا اللوحين من القرن العاشر

امام صفحة ٤٦٤

المقتطف دسمبر ١٩٣١

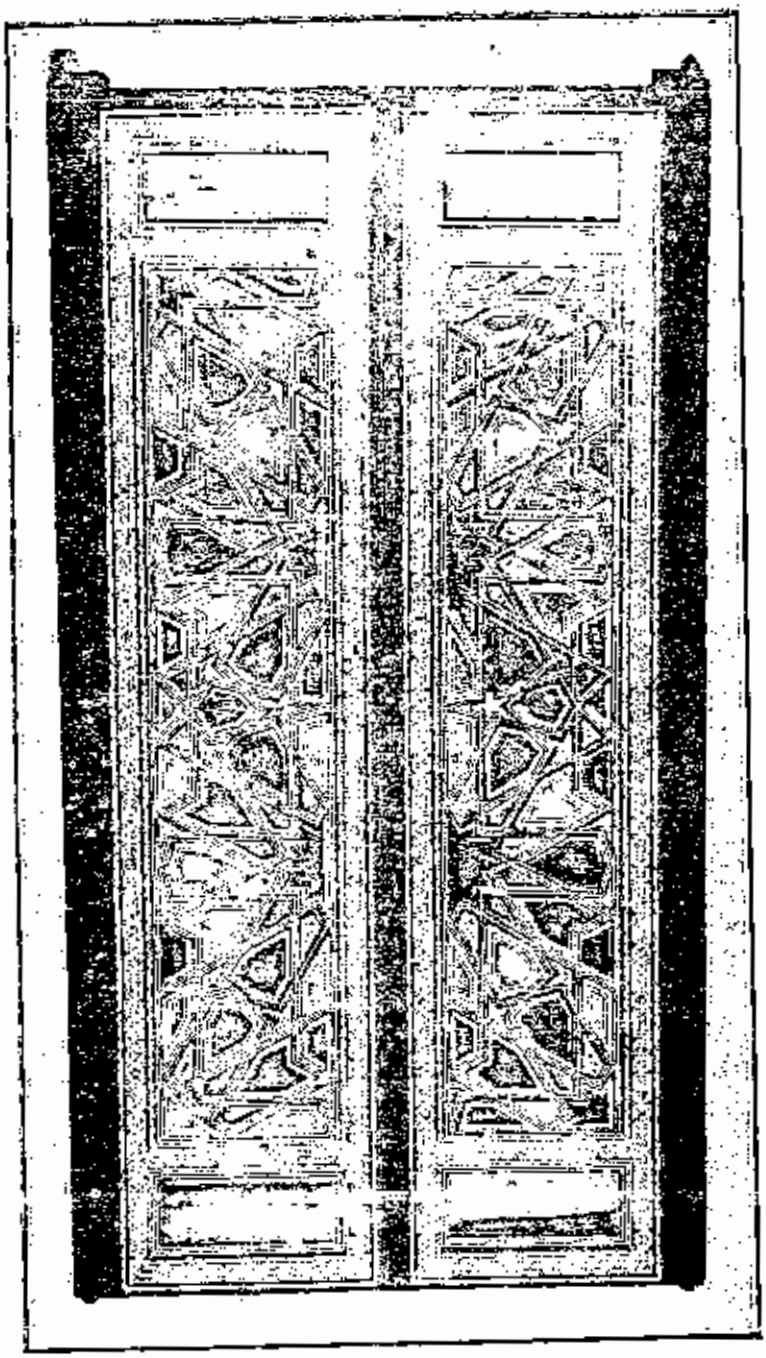

باب مدفن والدة السلطان شعبان من القرن الرابع عشر

مقتطف دسمبر ١٩٣١ امام صفحة ٤٦٥

وضمها بعضها إلى بعض في تركيب هندسي جميل فكان بهذا التركيب والتعشيق جمال واقتصاد وصناعة ولطافة . أما صناعة الخشب المخروط الذي يعرف الآن بالمشربيات ويستلفت الأنظار منظره ودقة صناعته وعظم فائدته من الوجهة الفنية الاسلامية العائلية فقد نبغ العرب بها بعد استعمالهم صناعة التعشيق . وقد اختلف العلماء في أصل كلمة (مشربية) فالاستاذ لين بول يقول في كتابه المسمى «الفنون العربية بمصر» بأن كلمة مشربية اتخذت اسماً للخارجات للمستديرة أو المثمنة التي توضع على النوافذ لأن هذه الخارجات كانت موضع القلل لتبريدها . ويقول المرحوم الاستاذ علي بهجت بك أن لفظ مشربيات محرف من كلمة (مشربه) وهي الغرف العالية . ومن ذلك قولهم اشرأب أي مد عنقه ليتمكن من النظر . وأقدم المشربيات المعروفة في مصر هي (الشعاع) المعروض بالقاعة السابعة بدار الآثار العربية وأصله كان موضوعاً بأعلى إحدى النوافذ بجامع السيدة نفيسه ويرجع عهده إلى الدولة الأيوبية بمصر أي الى حوالي (سنة ٥٦٧ الى سنة ٦٤٨ هـ)

نعود الآن إلى صناعة التعشيق فنقول بأن عهدها يرجع إلى أقدم العصور الهجرية فقد وجد بقرافة (عين الصيرة) بعض مصاريع صغيرة مركبة من حشوات مجمعة وقد أخذت هذه الحشوات تصغر حتى بلغ حجمها السانتيمتر الواحد في بعض الأحيان . وهنالك رأي آخر لتعليل استعمالها في مصر وذلك ان الذي حدا العرب إلى اتخاذ هذه الطريقة هو حبهم للاكثار من الفتحات تمشياً مع ما يستلزمه الطقس الحار

وللعرب في تزيين الخشب طرق ثلاث الأولى التنقش بالحفر والثانية التطعيم والثالثة التلوين . فأما الأول : أي النقش بالحفر فكانت تستحضر بأن يسوي الصانع سطح القطعة المراد زخرفتها ثم يرسم عليها ما يريد من الشكل ثم يأخذ في حفرها بأزميل صغير فتظهر بارزة أو غائرة كما يريد . وأقدم قطعة منقوشة بالحفر معلومة المصدر هي لوح أصله من جامع ابن طولون وعليه زخارف واسعة كثيرة الانحناء وهي تشابه الزخارف المنقوشة على بعض قطع أصلها من قرافة (عين الصيرة) ويلاحظ عليها المسحة البيزنطية إلا أنها تمتاز عن الزخارف القبطية بعظم انحنائها وبساطتها

وقد أخذت صناعة زخرفة الخشب تتحسن وترقى حتى بلغت مبلغاً عظيماً في عهد الدولة الفاطمية . ويرى بدار الآثار العربية أطر من الخشب بها زخارف محفورة تمثل مناظر مختلفة للصيد والرقص والموسيقى كانت بالسراي الغربية الفاطمية . وهي دليل على مبلغ رقي الفاطميين وحبهم للزخرفة والرسم اللذين بلغا مبلغاً عظيماً في عهدهم . وقد حيء بهذه الألواح من مارستان السلطان قلاوون بالنحاسين الذي يحتل جزءاً من السراي الغربية

وفي عهد الدولة الايوبية خلت الزخارف من صور الاشخاص والحيوانات والطيور واصبحت ادق صنعاً واكثر تفنناً منها في عهد الدولة الفاطمية

وفي اوائل القرن الثامن الهجري بلغ الفن في النقش والزخرفة اقصى درجاته وبوجه خاص في زمن السلطان الناصر محمد بن قلاوون الذي يعتبر عصره عصر ارتقاء الفنون على العموم

واما الطريقة الثانية اي الزخرفة بالتطعيم : ففي اواخر القرن السابع الهجري ادخل في بعض الحشوات المزينة بالحفر قضبان دقيقة من الخشب الملون وقد طعم بعض الحشوات بمواد غير خشبية حتى اصبح سطح تلك الحشوات جميعه مطعماً بل نجد احياناً سطح الطرفة بأجمعه مكسوًّا بطبقة من الزرنشان (الفسيفساء الدقيقة)، وانفس الطرف التي من هذا النوع هي كرسي من خشب على شكل منشور ذي ستة اضلاع مكسو بطبقة دقيقة من الفسيفساء مكونة من قطع صغيرة من الابنوس والسن وتتركب زخارف فسيفسائه من اشكال هندسية كثيرة التعقيد وخليه في اعلى واسفل زخرفة على شكل عقود واصله من جامع السلطان شعبان الثاني . اما صناعة الكرسي فترجع الى سنة ٧٧٠ هجرية

واما الطريقة الثالثة فالزخرفة بالتنزين : لم تكن الطريقتان السابقتان الوسيلة الوحيدة لدى صناع العرب للتوصل الى الطرف في الشكل بل كان يكفيهم احياناً ان يتخذوا بعض النقوش على سطوح الالواح المسوحة للحصول على اطرف الاشكال واوقعها في النفس. ويكفي القارىء ان يمتع نظره بسقوف قبة قلاوون الجميلة الصنع العديمة المثال

وقد اخذت هذه الصناعة الفنية الفنية — ونعني بها نجارة الخشب الفنية — تضمحل وتتدهور بدخول الاتراك العثمانيين الى مصر ولم ينقض زمن طويل حتى خلت الاخشاب من النقش والكتابة والتطعيم واصبحت حشواتها مجسمة خالية من زخرفة التطعيم واضحت تنقش باشكال هندسية تحفر حفراً تقليداً لصناعة التعشيق

٢ — ﴿ العاج ﴾ اتينا على ذكر العاج عند ما تكلمنا على الطريقة الثانية لتزيين الخشب ولا نريد هنا الافاضة في القول بل نود التصريح بأن صناع العرب قد استحبوا استعمال هذه المادة اما لعمل الحشوات كاملة واما لزخرفة التطعيم وفي الحالة الاولى قد تكون الحشوات ملساء كما انه على الغالب كانت تزين بكتابات او نقوش بديعة

وقد كان للعاج شأن عظيم في الصناعات الدقيقة حول منتصف القرن الثاني الهجري ولا زال حتى عم استعماله في نهاية القرن التاسع الهجري. وقد استعمل العاج مع الأبنوس والقصدير او الفضة والخشب الاحمر (البقم) في كسوة بعض الطرف المصنوعة من الخشب بحيث يتكون من مجموعها فسيفساء دقيقة جداً هي غاية في اللطافة والروعة .

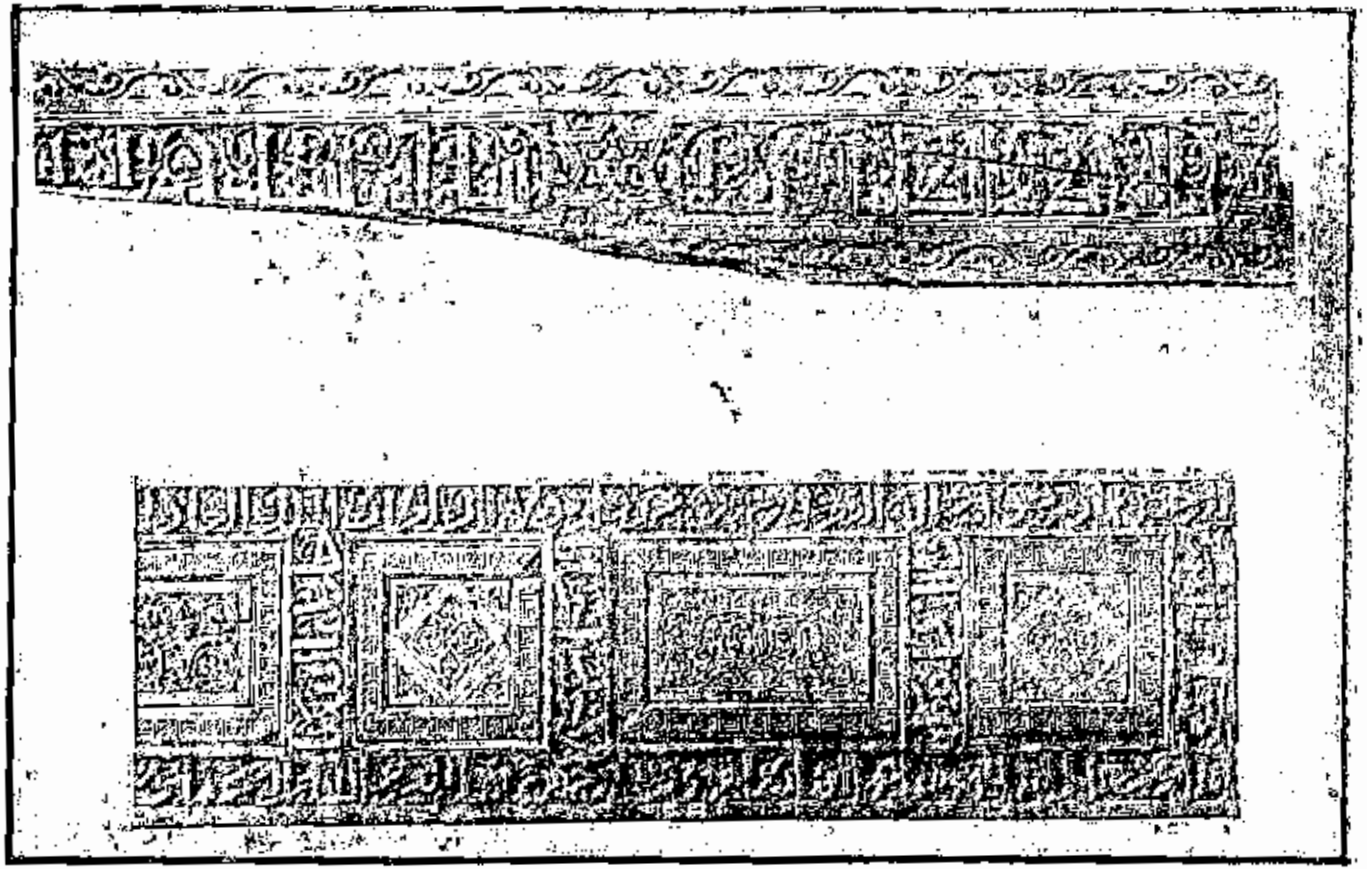

فوق — قطعة من افريز خشبي من القرن الثاني عشر تحت — جانب من شاهد حشبي من القرن الثالث عشر

وكانت تشمل هذه الغشاء (الكسوة) السطح الخارجي للطرفة واحياناً يزين بها داخلها — الطرفة — فتصبح كلها ذات منظر جميل جذاب

على انه يندر الحصول على طرف كاملة من العاج الصرف في مجاميع مصنوعات الفنون الاسلامية . الا ان هذه الطرف — رغم ندورتها — تدل على دقة صنعها وتفنن صانعيها واغلبها مؤرخ او منقوش عليه اسم الخليفة او السلطان الذي صنعت برسمه او عملت في عصره

وقد نبغ فنانو العرب في الاندلس — على عهد الدولة الأموية — في عمل صناديق صغيرة كلها من العاج مزينة بالصور وبها اقلام تحتوي كتابة كوفية تتضمن سنة صناعتها واسم الخليفة التي صنعت له . ويرجع تاريخ اغلبها الى القرنين العاشر والحادي عشر الميلادين ومعظمها صنع في مدينة (قرطبه) الشهيرة . الا اننا مع ذلك نرى عليها اثر الفنون الفاطمية في صقلية والمغرب ونفس الاندلس

واقدم قطعة معروفة في صناعة (قرطبة) هي علبة داخلها محفور على شكل اسطوانة لتوضع بها زجاجة العطر وهي خاصة باسم الاميرة الاندلسية ابنة (عبد الرحمن الثالث) العظيم (٩١٢ — ٩٦١ م) . وتوجد علبتان ايضاً احداها في متحف الفنون الزخرفية بباريز ، وثانيها في متحف (مدريد) وكلاهما مؤرخ بسنة ٩٦٦ م ٣٥٥ هـ . ومن بواعث الاسف ان كل هذه الطرف توجد في المتاحف الاجنبية واما المتاحف الاسلامية الاخرى فلا تحتوي على قطعة منها

٣ — ﴿العظم﴾ لم يذكر معظم علماء الآثار شيئاً يذكر عن العظم في الفنون الاسلامية الا ان العثور على طرف كثيرة منها في اطلال مدينة الفسطاط وجمعها في دولاب خاص بها في القاعة التاسعة بدار الآثار العربية ، حملنا على القاء نظرة على هذه الصناعة التي استعملت في الابتداء كأداة للكتابة حيث يوجد في دار الآثار والمكتبة المصرية الواح مكتوبة . ويرجع تاريخ معظم التحف التي عثر عليها بالفسطاط الى القرون الاولى الهجرية مما يدل على ان العرب استعملت هذه المادة لصعوبة الحصول على العاج الذي يقتضي نفقات طائلة وسفر شاق في أواسط أفريقيا

وقد استعمل العظم في تزيين الأخشاب وكسوة بعض اللعب الصغيرة الخشبية . ثم انهم زينوا العلب بفروع نباتية وثبتوا العظم على الطرف بمسامير صغيرة من الخشب . والذي يسترعي الانظار بنوع خاص هو كثرة العرائس المصنوعة من العظم الطويل وتغلب على الظن انها كانت لعباً للأطفال وبعضها قطعة واحدة والآخر قطع عديدة وعلى كل لقد سدت هذه المادة فراغ العاج في العصور الاسلامية الأول

صبري فريد